الباب الثالث

إيران في العصر الصفوي

الفصل الأول

المشيخة الصوفية

ينسب الصفويون إلى الشيخ صفي الدين إسحاق الأردبلي الذي كان في الأصل شافعي المذهب، وقد تنقل في بلاد إيران طلبًا للعلم، ودرس على يد الشيخ تاج الدين إبراهيم الجيلاني في مدينة جيلان التي لا تبعد كثيرًا عن أردبيل موطن صفي الدين، فأخذ عنه التصوف، وبعد وفاة شيخه ادعى رئاسة طريقة شيخه، ولكنه اصطدم بابن شيخه علي، فترك زاوية شيخه، وأسس له زاوية في أردبيل، فما لبث أن كثر مريدوه من الطلبة حيث تقوم الزاوية على تدريسهم وإطعامهم، وأشيعت عنه بعض الكرامات، فكان أمير أردبيل يغدق عليه الهبات وصنوف الطعام، ومال في تدريسه إلى بعض مبادئ الشيعة التي سبق انتشارها بجهود دعاة المذهب الإسماعيلي، وكان من مريدي الشيخ صفي الدين (الخواجة رشيد الدين فضل الله وزير غازان خان المغولي) ويخطئ من يظن أن لصفي الدين اتجاهًا نحو مذهب الشيعة بدليل ما نقل عنه شعرًا (حب الإمام علي يغفر كل إثم) فإن هذا النقل، وإن صح فهو يوجد عند كثير من غلاة الصوفية[١] وهذه نقطة التقاء بين التصوف والتشيع كما أوضحنا ذلك في كتابنا (أثر العناصر الأجنبية على بعض الشيعة الإثنا عشرية) وبعد وفاة الشيخ صفي الدين (تولى ابنه صدر الدين موسى مشيخة الطريقة الصوفية الصفوية، وقيل: إن الأمير تيمور لينك مقرب لهذا الشيخ، وكان ذلك سنة ٧٩٣هـ، وبعد وفاة صدر الدين موسى ورث ابنه علي مشيخة الطريقة الصفوية، وشاعت تعاليمها في إيران بتأييد من أمراء الأقاليم، وفي هذه المرحلة لم يكن لهذه الطريقة إلا صفة سنية مع

(١) جعفر المهاجر: الهجرة العامليية إلى إيران في العصر الصفوي، ص١٩ وما بعدها - دار الروضة - بيروت، ١٩٨٩م/ شموئيل سيجف: المثلث الإيراني، ص٣، ج١، ترجمة: دار الجليل - عمان، سنة ١٩٩٠م.

ميل لتعاليم آل البيت حيث تلتقي بعض مبادئ الصوفية مع بعض مبادئ الشيعة كفكرة الولاية والمعجزات والكرامات...) وبعد وفاته تولى ابنه الجنيد مشيخة الزاوية في أردبيل، وبسبب كثرة المريدين وتشكي أهل أردبيل من سلوك المريدين قام أمير تبريز وأردبيل الأشرف تيمور تاش المغولي وبمساعدة من عم الجنيد بطرد الجنيد ومريديه هربوا إلى بلاد الأناضول، وهناك حصل تحول فكرى عند الجنيد نحو التشيع العلوي بسبب وجود هذا المذهب في المنطقة ادعى الجنيد أنه من نسل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكثر حوله الأنصار، وهاجم مدينة طرابزون بوصفها أرض كفر يحكمها الروم، فرجع الجنيد ومريدوه إلى أردبيل، ولكن الملك شرون شاه قتله، وكان للجنيد ابن اسمه حيدر تربى عند أخواله فترة من الزمن، والتف حوله مريدو الزاوية الصوفية، وكان يطلب الانتقام من قتلة أبيه، فدرب المريدين على السلاح، ودرس على يد مشايخ من الشيعة العلوية في بلاد الأناضول، فكون جيشًا من القزل باش، فلما عظم خطره تولى العثمانيون القضاء عليه وقتله.

١- الشاه إسماعيل.

كانت امرأة الجنيد النصرانية حاملًا أحاطها القزل باش بالرعاية، فولدت إسماعيل سنة ٨٦٦هـ، وعند بلوغه سبع سنوات أخذه القزل باش إلى مدينة لاهيجان، وحظي بعناية وتأييد من (كريكا ميرزا علي) وكذا الشيخ ديلمان الشيعي فدرسوه كراهية الصحابة ومبادئ غلاة الشيعة من الشيخ شمس الدين اللاهي جي ولما بلغ ثلاثة عشر سنة رجع والقزل باش إلى أردبيل، وتعلموا فنون الحرب، وتجهزوا بصناعة آلات الحرب، فلما بلغ تسع عشرة سنة بدأ هو وأتباعه بفرض سلطتهم على أردبيل وما حولها، ونادوا بالتشيع لآل البيت، ودخلوا تبريز سنة ٩٠٧هـ، وفي جامعها خطب إسماعيل معلنًا نفسه بأمر من الإمام المنتظر وشتم الصحابة وعائشة، وطلب من أتباعه قتل من لم يقر بمذهب التشيع، فقتل خلق كثير في المسجد، ثم سار بجنوده إلى بيوت الأكابر في تبريز، فنهبوا، وقتلوا كل من عارضهم، ثم هاجم شروان، وفعل فيها كما فعل في تبريز، ثم استولى على

أقاليم إيران، ونادى بالتشيع الإثنا عشري مذهبًا لدولته، وبدأ عهد اضطهاد السنة وعلمائهم في إيران عن طريق القوة والقتل، واجتاح بجيشه أجزاء كبيرة من العراق، فدخل بجيشه بغداد سنة ٩١٤هـ، وقضى على حكم أسرة (آق قيون لو) التركمانية قبل أن يتوفى سنة (ت ١٥٢٤م). ولما تعاظم شأن الصفويين في إيران اشتكى الناس إلى السلطان العثماني سليم الأول، فقاد بنفسه جيشًا مسلحًا لأول مرة، ونقلوا إليه مقالات الصفويين وأفعالهم، فالتقى الجيشان في معركة جال ديران انكسر فيها الجيش الصفوي، وجرح إسماعيل، ثم هرب مع بعض أتباعه متخفيًا أشهرًا عدة حتى رجع الجيش العثماني إلى إسطنبول، فظهر إسماعيل من مخبئه، ورجع إليه جنوده، فسار بهم إلى تبريز، فعمل بها ما فعله في المرة الأولى، وأخضع بقية أقاليم إيران، وكتب إلى السلطان العثماني مخادعًا ومظهرًا الطاعة، وكان العثمانيون منشغلين بجيوشهم في فتح أوروبا، وقد توفي إسماعيل عن عمر ٣٧ سنة بعد تجرعه الهزيمة وانغماسه في الشراب. ونشير هنا إلى أن الشاه إسماعيل قد قام باحتلال العراق، ودخل بغداد سنة ١٥٠٨م ونادى بتطبيق المذهب الشيعي الإثنا عشري في العراق، ثم اتجه إلى النجف وكربلاء، وهدم كثيرًا من مساجد السنة، وذبح بعض علماء السنة، ولكن السلطان العثماني سليمان القانوني أخرج النفوذ الفارسي بقوة من الجيش العثماني، وكان من نتيجة انهزام الجيش الصفوي في جالديران أن اتسعت الدولة العثمانية، وضمت إليها أراضي واسعة في غرب إيران. وقد ساعد العثمانيون على ذلك الأكراد في كردستان، فقام إسماعيل بالانتقام من العثمانيين عن طريق تحالفه بمعاهدة مع البرتغاليين، فاتفق معهم على أن ينضم جيشهم مع الجيش الصفوي لاحتلال البحرين والقطيف، وأن يساعدوهم على قمع تمرد بلو شستان، وتتنازل حكومة الشاه عن مضيق هرمز للبرتغاليين.

ويدين كثير من أساتذة التاريخ الإيرانيون وخاصة بعض من هم في جامعة طهران الأعمال الوحشية التي قام بها الشاه إسماعيل، ولا يخفون سوء سيرته، وأن أعماله لا تشرف الإيرانيين.

٢- طهماسب.

وقد خلفه ابنه الصغير طهماسب البالغ إحدى عشرة سنة، وفي أول حياته كانت الأمور تسير بأمر من الأمراء الصفويين، وفيما بعد، بعد قدوم الشيخ عبدالعال الكركي من جبل عامل في لبنان تولى هذا الشيخ الشيعي الإثنا عشري توجيه الشاه طهماسب مدعيًا أنه ينفذ إرادة الإمام الغائب، فكان الشيخ الكركي من أوائل من وضع نظرية ولاية الفقيه، وقد دخل الجيش الصفوي في عهد طهماسب في نزاع مع العثمانيين ما اضطر السلطان سليمان القانوني إلى احتلال تبريز، ثم البصرة ما اضطر طهماسب إلى عقد صلح أماسية سنة ١٥٥٥م تنازل فيه الصفويون عن أراضٍ كثيرة في الأناضول وغيرها وعدم احتلال العراق،... وبعد وفاة طهماسب حكم ابنه الشاه إسماعيل الثاني، ولم تدم مدة حكمه أكثر من سنة وبضعة أشهر رفع فيها شتم الصحابة ومخالفة الغلاة من الشيعة، وكان عنيفًا مع خصومه ما سبب أن دسوا له السم، فمات، فخلفه أخوه الشاه محمد بن طهماسب، ولم يدم حكمه طويلًا؛ لضعف شخصيته ومرضه[١].

٣- عباس الأول:

فخلفه ابنه عباس الأول، واتسم أول عهده بالاضطرابات والدخول في حروب مع العثمانيين والأوزبك، فقد كان حديث السن (١٨ سنة) ولكن فيما بعد بسط نفوذه شيئًا فشيئًا بدءًا من الأقاليم الشمالية الغربية من إيران وانتزاعها

---

(١) د. أمير حسين خنجي: إيران الصفوية كيف صار الإيرانيون شيعة صفويين؟: مكتبة النافذة - القاهرة - ٢٠١٠م.

- د. أمير حسين خنجي: المصدر السابق.

- د. أبوبكر مرشد فازع الزهيري: التوجهات الإيرانية في المنطقة العربية - ص٢٢، ط٢، مكتبة مركز الصادق - صنعاء.

- كولن تيرنر: التشيع والتحول في العصر الصفوي، ترجمة: حسين علي عبدالستار، ص١٠٢ - منشورات الجمل - بغداد، ٢٠٠٨م.

من العثمانيين، ثم حارب البرتغاليين الذين بدوا يظهرون في الخليج العربي، فدخل معهم في حروب في بندر عباس وعلى سواحل الخليج، ووقع معهم معاهدة سنة (١٦٠١- ١٦٠٨م) وفي سنة (١٦٢٣م) احتل العراق وكردستان، وقد قام بإصلاحات داخلية، فأدخل المسيحيين في جيشه، واتفق مع الأوروبيين، وتنازل لهم عن النفوذ في الخليج لقاء تزويده بالسلاح وصد الدولة العثمانية ونفوذها عن المنطقة، فكان أول تحالف غربي يدخل نفوذه هذه المنطقة عن طريق الصفويين وبمعاهدات رسمية، واتخذ أصفهان عاصمة له. وفي سنة ١٦٢٤م غزا العراق والبحرين، ودخل بغداد بعد حصار ثلاثة أشهر أكل فيها الناس المحرمات من الحيوان، فنكل بالسنة في احتلاله، فهدم جامع أبي حنيفة والشيخ الجيلاني، ثم زار مراقد أئمة الشيعة في النجف وكربلاء، فأصلح أمورها، وقد تولى مكان الكركي في عهد الشاه عباس الكبير الشيخ حسين بن عبدالصمد العاملي الذي قدم من جبل عامل، ولكن لزهده ترك هذا المنصب لابنه محمد الملقب بالشيخ البهائي، وكان عالمًا موسوعيًّا في معرفة علوم عصره، ولذا ترك منصبه الدنيوي، فتركه متنقلًا ثلاثين سنة في أقاليم إيران وتركيا والشام، وكتب كتابه المشهور بالكشكول الذي احتوى على علوم مختلفة مرت عليه في أسفاره، فكان فكره غير متعصب لمذهب معين ما جعل بعض السنة يعدونه من شيوخهم، ويُعدّ الشاه عباس الأول أو الكبير من أكثر المتعصبين للتشيع، فقد أمر بصك أسماء الأئمة الإثنا عشر على العملة، وكان يحيي عزاء عاشوراء ويوم استشهاد الإمام علي، وقد مشى من عاصمته أصفهان إلى مشهد الإمام الرضا، وبقي فيه ثلاثة أشهر ينشر تعظيم الأئمة، وقيل: إنه حاول إقناع الشيعة الإيرانيين بعدم الحج إلى مكة والاكتفاء بالحج إلى مشهد متعللًا بالصعوبات التي يلقاها الحاج من العثمانيين وبقصد تجنب رسم الحج المفروض آنذاك، وقد تأيّد مثل هذا التوجه في بعض الأحاديث المنسوبة كذبًا إلى الأئمة.

وجاء بعده في الملك سام ميرزا بن صفي ميرزا بن عباس، وسمي صفي الأول، وحكم ثلاث عشرة سنة، وكان ضعيفًا في حكمه، وانشغل في حروبه ضد العثمانيين والأوزبك، وتوفي سنة ١٦٤٢م، ودفن في قم، وجاء بعده ابنه عباس الثاني، وكان صغير السن هادن الأوزبك، ووثق العلاقات التجارية مع الدول الغربية[١].

٤- الشاه صفي الثاني:

وجاء بعده ابنه صفي الثاني الذي سمى نفسه الشاه سليمان، فقد كان وزراؤه يديرون الحكم عنه، وانتعشت التجارة في عهده مع البلاد الأوروبية، وأصبحت مزارًا للأطماع الاستعمارية تنازع عليها الفرنسيون والبريطانيون، وفي عهده جاء لإيران من جبل عامل الشيخ محمد باقر المجلسي، فكان ذا حظوة وقوة عند الشاه، وكتب كتابه المشهور (بحار الأنوار) وقد توفي سنة ١٦٩٩م، وكان المجلسي متعصبًا لمذهبه محرضًا على إيذاء المخالفين، وخاصة من السنة، وتعود ضخامة كتاب (بحار الأنوار) ليس إلى أفكار المجلسي وعلمه، بل كان عمله قد جمع كل ما جاء في كتب الشيعة التي ألفت قبله؛ ولذا فقد احتوى كتابه على الكثير من الأساطير والمعجزات والأخبار غير الصحيحة التي أساءت إلى مذهب الشيعة الإثنا عشرية لما فيها من غلو وأكاذيب، وقد جاء كتابه في ثلاثة وعشرين مجلدًا من القطع الكبير طبع على الحجر في العهد القاجاري، واليوم أعيد طبعه، فكان أكثر من مئة مجلد، رفعت بعض عباراته المتعلقة بشتم أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٥- الشاه حسين الأول:

وجاء بعده ابنه حسين الأول، وكان ضعيفًا، وفي زمنه انتشرت المجاعات في إيران، فضعفت سلطة الدولة، وعمها الاضطراب على الرغم من تعصب

(١) د. إبراهيم خليل أحمد ود. خليل علي مراد (إيران وتركيا دراسة في التاريخ الحديث) ص٤٥ وما بعدها، دار الكتب للطباعة والنشر الموصل، بغداد، ١٩٩٢م.

الشاه حسين للمذهب الشيعي ما دفع السنة الأفغان إلى محاصرته وإرغامه على التنازل عن العرش، وذلك سنة ١٧٢٢م، وبهذا انتهت الدولة الصفوية التي حكمت ما يقرب من قرنين من الزمن، ولم يستطع الإيرانيون الحكم عليها؛ لما عم من اضطرابات خاصة المنادية برجوع الحكم الصفوي.

احتلال الأفغان لإيران: (١٧٢٢-١٧٢٩م):

عانى الأفغان احتلال الصفويين لبلادهم، حيث احتلوا قندهار وهراة، وقد قامت قبيلة غلزائي وقبيلة أبدالي بقيادة مير ويس بدحر الجيش الصفوي في عهد السلطان حسين الذى كان يريد السيطرة على قندهار، وبعد وفاة مير ويس سنة ١٧١٥م خلفه محمود الابن الأكبر، وكان مير محمود في الثامنة عشرة من العمر عند توليه السلطة، ويحظى باحترام قبيلته؛ لكونه محاربًا شجاعًا، وبسط نفوذه على كل أفغانستان ما اضطر الشاه حسين إلى قبول الأمر الواقع والاعتراف به حاكمًا فعليًّا على أفغانستان، ولكن مير محمود أدرك ضعف الدولة الصفوية ما جعله يتوسع على حسابها، وفى عام ١٧١٩م احتل مدينة كرمان مدة ٩ شهور، ثم اضطر إلى الانسحاب منها لمواجهة بعض الأخطار التي هددت مركزه في قندهار، ثم إعادة الكرة مرة أخرى على ذلك بسبب ضعف الدولة الصفوية، وفى عام ١٧٢١م أعد قوة عسكرية ضد إيران، وهاجم في طريقه كلًّا من كرمان ويزد، ولم يفلح في احتلالهما إلا أنه واصل تقدمه نحو مراكز الجيش الصفوي، وفى ١٧٢٢م تمكن الأفغان من هزيمة الجيش الصفوي في موقعة كلنا باد بالقرب من العاصمة أصفهان، ثم بدأ في فرض الحصار، وفى ١٢ تشرين الأول دخل مير محمود العاصمة، وتوج ملكًا في ٢٥ تشرين الأول ١٧٢٢م من قبل الشاه الذى استسلم، ثم اقتيد الشاه الصفوي إلى السجن. يُعدّ الغزو الأفغاني وتتويج مير محمود النهاية الفعلية للحكم الصفوي، وبعدها أرسل مير محمود حملات عسكرية إلى بعض المدن العسكرية مثل قزوين لاعتقال طهماسب

(الثاني) الذى هرب منها إلى تبريز، وقد احتلت هذه القوات مدن كاشان وقم وقزوين، لكنها تكبدت خسائر كبيرة ذلك بسبب قسوة القوات الأفغانية ما جعل السكان يقومون بثورة ضدها، وقتلت عددًا كبيرًا منهم، وهرب من بقي منهم إلى خارج المدينة ما جعل مير محمود ينتقم منهم بذبح (٣٠٠٠) رجل من أسرى الجيش الصفوي في أصفهان، وفى شباط ١٧٢٥م دبر مير محمود مذبحة أخرى شملت معظم أفراد الأسرة الصفوية، وفى عام ١٧٢٥م تم قتله على يد ابن عمه أشرف الذى أعلن نفسه ملكًا في ٢٦ نيسان ١٧٢٥م.

نادر شاه:

فظهر قائد طموح اسمه «نادر الأفشار ادعى النيابة عن حكم الشاه طهماسب (الثاني) ابن الشاه حسين الصفوي حيث قضى على جيش الأفغان، واحتل بجيشه بلادًا واسعة من إيران وأفغانستان وأجزاء من الهند، ثم اتجه لاحتلال العراق، فدخل بغداد، وزار قبر الكاظمين وقبر أبي حنيفة، ثم اتجه إلى النجف وفيها عقد مؤتمر النجف الشهير بين علماء الشيعة والسنة، وفيما يبدو أنه أحيا الحكم الصفوي حيث ثارت عليه العديد من الخلافات قتل فيها، وتولى حكم إيران جزئيًّا خاصة في جنوبها كريم خان الزند الذي تولى بعده القاجاريون حكم إيران»[(١)].

وقد استكمل إسقاط الدولة الصفوية على يد السلطان الأفغاني أويس حاكم قندهار سنة ١٧٠٩- ١٧١٥م وكذلك من بعده المير محمود بين سنتي ١٧١٥- ١٧٢٤م، فاحتلوا عاصمة الصفويين أصفهان.

وقد اتسمت العلاقات الصفوية العثمانية بكثير من التنافس والاقتتال خاصة في عهد السلطان يزيد الذي دحر الجيش الصفوي في معركة جالديران الشهيرة وكذلك الحال في عهد السلطان سليمان القانوني الذي طرد الصفويين

(١) محمد المعموري: الأسرة الصفوية شيوخها وملوكها، ص١٧٠ (من كتاب الصفوية التاريخ والصراع والرواسب/ وما بعدها- مركز المسبار للدراسات والبحوث، ط٣- دبي، ٢٠١١م.

بالقوة من العراق ومن أجزاء كبيرة من غرب إيران، وضم تلك الأجزاء إلى الدولة العثمانية على الرغم من أن هناك الكثير من عناصر الالتقاء بين الدولتين، فشعوبهما تتكونان من أجناس متجانسة كالتركمان والأكراد والعرب وأقليات مسيحية ويهودية، ويلتقيان في تشابههما في الامتداد الحضاري لكلتا اللغتين التركية والفارسية، ويلتقيان في شيوع الفكر الصوفي على الرغم من اختلافهما المذهبي كما أوضحنا، ويمتد التشابه إلى الفنون والآداب والطعام وما إلى ذلك من أساليب الحياة غير أنه مع الأسف في الوقت الذي بدأت فيه أوروبا بالنهضة الصناعية الحديثة منذ مطلع القرن السادس عشر أضعفت الصراعات بين هاتين الدولتين قوتهما الاقتصادية، وعملت أوروبا بدءًا من البرتغال وهولندا وفرنسا وبريطانيا في إشعال الفتن بينهما ليخلو المسرح السياسي والاقتصادي إلى الدول الأوروبية مستغلين بذلك الخلافات المذهبية بين السنة والشيعة وتعارض مصالحهما الاقتصادية وهذه اللعبة السياسية تتكرر على السياسة أيضًا اليوم في كلٍّ من إيران والعراق والشام وتركيا، والعدو هو الوحيد المستفيد من تلك الصراعات[١] وقد قام الدكتور أحمد بوشرب بترجمة وثائق برتغالية في فترة الحكم الصفوي توضح هذه الوثائق نفوذ البرتغاليين في الخليج العربي والبحر الأحمر وصراعهم مع القوى العربية والعثمانية وأسطول المماليك في مصر، وغالبية الصراع يدور حول المغانم التجارية وتدبير البرتغاليين لغزو البحرين والبصرة والأحساء والقطيف وعدن وتخريب ميناء جدة والسيطرة على مضيق هرمز كل ذلك بتسهيل وسكوت من الحكم الصفوي[٢] وقد أوضح المؤلف أن تلك الوثائق تعكس استخدام البرتغاليين جواسيس من اليهود والنصارى حتى بعض القسس في كنائسهم.

---

(١) د. عباس إسماعيل صباغ: تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية - ص٢٠ وما بعدها - دار النفائس، بيروت، ط ٣- ٢٠١١م.

(٢) د. أحمد بوشرب: (الخليج العربي والبحر الأحمر من خلال وثائق برتغالية (١٥٠٨- ١٥٦٨م)، (ص١٧٦-١٨٠-٢٣٠-٢٧٢-٢٧٥-٣٨٠-٤١١-٤٧٤).

علاقة الدولة الصفوية بالبرتغال وإسبانيا:

كانت التجارة في المحيط الهندي والخليج العربي بأيدي العرب خاصة الذين يسكنون شواطئ الخليج العربي إلى أن بدأ نفوذ البحارة والتجار البرتغاليين سنة ١٥٠٢م في الانتشار بدءًا من سواحل الهند على يد المستكشف البرتغالي فاكسو دي جاما حيث اكتشف البرتغاليون تلك الموانى الجديدة على سواحل الخليج، فبدؤوا الاتصال بالدولة الصفوية خاصة في عهد الشاه عباس الكبير مزاحمين بذلك نفوذ الدولة العثمانية، فدخل البرتغاليون في صراع مع التجار العرب المصريين واليمانيين والعمانيين والبحرينيين والكويتيين وبقية القوى العربية، فانحسر بذلك في هذه الفترة النفوذ العربي. وفي سنة ١٥٠٦م أرسل ملك البرتغال حملة عسكرية استولت أول الوقت على موزمبيق، ثم على عدن، ثم استولوا على جزيرة هرمز، وتحكموا بهذا المضيق. وقد وصف الرحالة البرتغالي ماركو بولو التبادل التجاري في هذه المنطقة وعدد أنواع البضائع التي تنتقل من الشرق إلى الغرب، ثم امتد نفوذ البرتغاليين إلى جزيرة كيش على الساحل الإيراني ومسقط، ثم على البحرين والبصرة، وكان لهم في هذه الأماكن وجود تجاري وسياسي في هذه الفترة، ودخل الجيش البرتغالي بقيادة بوكيرك في حرب ضد الجيش العربي في مضيق هرمز، وعلى الرغم من كون العرب أكثر عددًا، ولكن البرتغاليين هزموهم بسبب استخدام المدافع والبنادق التي لم تكن معروفة وقتها عند العرب، وبنى البرتغاليون القلاع الحصينة على سواحل الخليج، وفرضوا على أهل البلاد الخراج لحكومة البرتغال، وقد هدد البرتغاليون الشاه إسماعيل الصفوي، ومنعوه من أخذ الخراج على أمير هرمز؛ لأن هذا الحق قد انتقل إليهم. وفي سنة ٩١٨هـ قرر القائد الأسطورة البرتغالي البوكيرك الاستيلاء على ميناء عدن ومكة، ولكنه فشل في الوصول إلى مكة أو الاستيلاء على عدن، ورجع إلى مقره في الهند، وفي سنة ١٥١٥م عقد الشاه إسماعيل

الصفوي معاهدة مع البرتغاليين لمساعدته في السيطرة على بعض الموانى والمدن الفارسية التي كانت تتمرد خاصة من قبل العرب وعمان، واتفق على غزو البحرين والقطيف، واتفق اتحادهما ضد الدولة العثمانية ونفوذهما في المنطقة، وتمتع البرتغاليون بالسيطرة على الخليج في العهد الصفوي حتى عهد طهماسب الثاني، وبعده بدأ تنامي النفوذ الهولندي والبريطاني في الخليج وصراعهما مع بريطانيا، وفي سنة ١٥٥٠م دخل العثمانيون في مواجهة ضد النفوذ البرتغالي في الخليج، حيث استعاد العثمانيون النفوذ على البصرة والقطيف وطرد القوات البرتغالية منها، وفي السنة نفسها استولت القوات العثمانية على مسقط وطرد النفوذ البرتغالي منها، وقد حاول العثمانيون بسط نفوذهم على الموانى الإيرانية، ولكنهم فشلوا حيث استرد البرتغاليون نفوذهم عليها خاصة هرمز، وقد حل النفوذ الإسباني محل النفوذ البرتغالي حتى سنة ١٦٤٠م حيث حل نفوذهم على المنطقة والخليج محل البرتغال، وفي عهد عباس الكبير سمح الصفويون لكثير من القسس الكاثوليك بنشر الديانة المسيحية واستقبال مندوب من البابا، حيث استقبل الشاه عباس الكبير في أصفهان مندوبًا من البابا. وفي سنة ١٥٩٩م كتب الشاه عباس الكبير إلى دول أوروبا المسيحية، وأرسل سفارته لهم عارضًا الاتفاق معهم ضد النفوذ العثماني ومحاربة الدولة العثمانية في مقابل أن يفتح لهم نشر المسيحية في إيران واختصاصهم بتجارة الحرير الإيراني، فذهبت بعثته بزعامة أنتوني شارلي وحسين علي بيك، وقابلت قيصر روسيا ثم القيصر الألماني ثم البابا في الفاتيكان وأخيرًا إلى ملك إسبانيا محملة بالهدايا الإيرانية إلى أن رجعت هذه البعثة من لشبونة عن طريق البحر إلى هرمز. وفي سنة ١٠١٠هـ استولى الجيش الإيراني على البحرين طاردًا النفوذ البرتغالي منها، فكان أول من استجاب إلى دعوة الشاه لنشر المسيحية الدولة الإسبانية التي أرسلت من الهند بعض القسس الذين التقوا مع الشاه في مشهد سنة ١٦٠٢م. فوافق الشاه على إقامة كنيسة ودير في كاشان وأصفهان. وأرسل الشاه عباس الكبير وفدًا

إلى ملك بريطانيا حاملًا الأغراض نفسها السابق ذكرها إضافة إلى أن تقدم إيران التسهيلات التجارية خاصة لشركة الهند الشرقية ومنحهم مركزين من موانى إيران على الخليج، وكان ذلك سنة ١٦١١م، وقد أدى البريطاني أنتوني شيرلي وبعض قسس الكاثوليك الفرنجة خدمات جليلة للشاه عباس، وعملوا على الصلة بينه وبين الفرنجة خاصة ملك إسبانيا بقصد التعاون العسكري ضد الدولة العثمانية وتسهيل الشاه للتجار الفرنجة التجارة في الخليج وخاصة تجارة الحرير، ولكن الشاه عباس بعد أن يئس من مساعدة دول الفرنجة خاصة إسبانيا والبرتغال لمساعدته ضد الدولة العثمانية بدأ يهاجم النفوذ البرتغالي والإسباني في الخليج خاصة في البحرين وهرمز وقشم ومدينة جمبرون التي سميت فيما بعد بندر عباس، واتجه في سياسته إلى بريطانيا وإحلال نفوذها في الخليج محل البرتغال والإسبان خاصة.

علاقة الصفويين ببريطانيا:

ترجع علاقة الصفويين ببريطانيا إلى عهد الشاه طهماسب الأول حيث أرسلت بريطانيا سفيرها إلى إيران سنة ٩٦٩هـ، قد قام الشاه بتسهيل الحرية للتجار البريطانيين في نقل البضائع وحرية سكنهم والمحافظة على أمنهم، فكانت تجارة البريطانيين في هذه الفترة تتم عن طريق روسيا وحدودها مع إيران متجنبين الصدام في الخليج بالنفوذ البرتغالي والإسباني، وفي عهد الشاه عباس الأول نمت العلاقة التجارية بين بريطانيا وإيران، وكان لجهود الأخوين البريطانيين أنطوني وريبورت شيرلي دور كبير حيث استقدم كثير من التجار البريطانيين إلى إيران سنة ١٥٩٨م وبأمر من كونت أسكس أحد عظماء بريطانيا طلب منهما السفر إلى إيران وتحريض الشاه عباس على محاربة الدولة العثمانية، وقد أدخل الشاه هذين البريطانيين في خدمته، وقام بتدريب الجنود الإيرانيين لاستخدم الأسلحة النارية وفنون الحرب، واقترح على الشاه إرسال

السفارات إلى ملوك أوروبا يحرضهم على محاربة الدولة العثمانية، وقد أرسل الشاه أنطوني شيرلي وحسين علي بيك في سفارة طويلة لملوك أوروبا وإلى البابا لهذا الغرض، وبعد ثماني سنوات من سفارة شيرلي في أوروبا عاد إلى إيران وأرسى نفوذ شركة الهند الشرقية، ووسع نشاطها التجاري إلى بعض موانى إيران جالبًا بذلك قماش الجوخ المصنع في بريطانيا خصيصًا للشاه حاملًا ردود بعض ملوك أوروبا المتضمنة عمومًا رغبتهم في مساعدة إيران ضد الدولة العثمانية ما عدا إمبراطور ألمانيا الذي اعتذر لشيرلي بأنه قد وقع مع العثمانيين معاهدة وصداقة، ومنذ سنة ١٥٨٣م بدأ التجار البريطانيون علاقتهم بالهند بداية من سواحل المحيط الهندي مزاحمين بذلك النفوذ البرتغالي والإسباني، وفي سنة ١٦٠٨م وصلت أول سفينة بريطانية تابعة لشركة الهند الشرقية إلى سوحل الهند، ثم توالت السفن التجارية البريطانية، وعقد التجار البريطانيون مع الهنود عقودًا للتبادل التجاري، مزاحمين بذلك نفوذ الآخرين، فتمكنوا من تأسيس أول مركز تجاري في سورت، وشيئًا فشيئًا سيطرت شركة الهند الشرقية البريطانية على تجار الهند، وحصلت على تسهيلات من حكام الهند خاصة الموانى في المحيط الهندي. أمر الشاه بتسهيل نشاط التجار والبواخر البريطانية ومعاملتهم كبقية الفرنجة، فزاد نفوذ شركة الهند الشرقية التجاري في الموانى الإيرانية وداخل المدن الكبيرة، وتبادلوا بينهم السفارات، وأصبح الحرير الإيراني يصدر كثير منه عن طريق السفن التجارية في الخليج بدل أن كان يصدر عن طريق الأراضي العثمانية التي كانت تأخذ رسومًا على عبور الحرير عن طريق بغداد وحلب إلى أوروبا، وكان الشاه عباس يريد أيضًا إضعاف النفوذ البرتغالي والإسباني الذي استحوذ على أكثر موانى الخليج. وفي آخر عهد الشاه عباس ضعفت تجارة البريطانيين في إيران لأسباب أهمها مضايقة التجار الهولنديين ومزاحمتهم في هذا المقام، ولكن بعد وفاة الشاه عباس وفي عهد الشاه صفي الدين توثقت العلاقات أكثر مع بريطانيا، وعقدت معاهدة سنة ١٦٣٨م منح

البريطانيون إنشاء مراكز تجارية في المدن الإيرانية وحريتهم في نقل البضائع وتقلد السلاح لحمايتهم. وفي عهد الشاه عباس الثاني بدأ البريطانيون يحتلون المراكز التجارية في الخليج بدل الهولنديين خاصة في جزيرة قشم ومسقط والبصرة، وكان ذلك سنة ١٦٥٤م، وإضعاف النفوذ الهولندي سنة ١٦٨٨م على يد الفرنسيين الذين حاربوا هولندا في البحر المتوسط، وبهذا بادر البريطانيون إلى مزيد من إحلال نفوذهم حتى في الهند، وفي أواخر عهد الدولة الصفوية وفي أثناء حكم الشاه سليمان ضعفت سيطرت الإفرنج جميعًا وخاصة البريطانيين ما دفع بالدولة العثمانية لتحريض العرب خاصة في عمان على الاستيلاء على بعض المراكز التجارية في الخليج وبمساعدة من الأفغان الذين هاجموا شمال الدولة الصفوية، وقد تشجع البلوش في كرمان على مهاجمة المراكز التجارية البريطانية خاصة في بندر عباس بعد ضعف الدولة الصفوية. وساد في هذه الفترة النفوذ الأفغاني والعربي في إيران في أغلب المراكز التجارية في الخليج خاصة على الساحل العربي منه.

علاقة الصفويين بهولندا:

لما كانت هولندا في القرن السادس عشر تابعة للنفوذ البرتغالي والإسباني فإن التجار الهولنديين قد تعرفوا إلى التجارة مع الهند خاصة عن طريق رأس الرجاء الصالح ١٥٩٤م وصلت الهند أول سفينة هولندية تحمل تجارًا من الهولنديين، وفي سنة ١٥٩٨م كونت هولندا في الهند الشركة الهولندية الشرقية، فاتسعت التجارة بين الهولنديين والمراكز التجارية الهندية، وفي سنة ١٦٥٣م استولوا الهولنديون على رأس الرجاء الصالح، واتسعت تجارتهم في جاوة، واستعمروا إندونيسيا، وبسطوا نفوذهم على بعض المراكز التجارية في شرق آسيا، وحاصروا تجارة البرتغاليين والبريطانيين على التوابل في هذه المنطقة. وفي سنة ١٦٢٣م وفي عهد الشاه عباس الكبير أسس الهولنديون مركزًا تجاريًّا

في هرمز، وبسطوا نفوذهم على ما حوله مستغلين بذلك غياب الجيش الصفوي في العراق لمحاربته العثمانيين. واستقبل الشاه عباس بعد رجوعه من العراق سفيرًا لهولندا سهل له وللتجار الهولنديين تجارة الحرير خاصة التي كان الشاه يحتكرها لنفسه ولأتباعه، وأعفى التجار الهولنديون من كثير من الرسوم والضرائب، وأضفى حمايته عليهم، وأعطاهم حرية إقامة كنيسة لهم، وفي آخر عهده اشتدت المنافسة بين التجار الهولنديين والتجار الإنجليز. وفي سنة ١٦٤٥م هاجم الأسطول الهولندي، واحتل جزيرة قشم الإيرانية، ثم اتجه أيضًا إلى هرمز، ولم يفلح في فرض سيطرته عليها، ودخلت هولندا في صراع على النفوذ مع بريطانيا من جهة ومع البرتغال وإسبانيا من جهة أخرى، وفي سنة ١٦٥٠م هاجم الهولنديون المركز التجاري البريطاني في البصرة، وأسس الهولنديون في البصرة مركزًا منافسًا خاصة لتجارة التوابل، وأسس الهولنديون وبمساعدة من عرب مسقط مركزًا تجاريًّا لهم في عمان، وأضعفوا الوجود البرتغالي في مسقط، واشتدت المنافسة التجارية بين الهولنديين والبريطانيين ما دفع بريطانيا سنة ١٦٥٢م إلى إعلان الحرب ضد هولندا. وتكررت الحرب بينهما سنة ١٦٦٤م، فكان من نتيجة ذلك الصدام بين السفن التجارية الهولندية والبريطانية خاصة في الخليج وفي بندر عباس، وعلى الرغم من هزيمة إنجلترا في هذه الحرب إلا أن الأوضاع التجارية في الخليج استمرت نشطة من كلا الطرفين، ثم دخلت هولندا في حرب مع فرنسا ما ضعف نفوذها حتى في الخليج متخلية بذلك إلى النفوذ البريطاني في الخليج وفي إيران، نجحت تجارة الشركة الهولندية الشرقية في عهد الشاه عباس الثاني بسبب صلتهم الشخصية بالشاه وإغداق الهدايا عليه على الرغم من عدم ثقة الإيرانيين في التجار الهولنديين لكثرة مكرهم، وكانوا يجلبون إلى إيران المنتجات الهندية خاصة التوابل وكذلك المنتجات الأوروبية من أقمشة وصناعات مختلفة، ويشترون من إيران الحرير والخزف، ويرجع

نشاط الهولنديين التجاري إلى تدخل دولتهم ومساعدتها لهذه الشركة، وكان أهم مراكزهم التجارية في بندر عباس وأصفهان وفي مدينة لار.

وفي عهد الشاه سليمان والمدعو الصفي الثاني تقلصت التجارة الهولندية، ودخل الهولنديون في خلافات مع الإيرانيين، فاحتلوا في سنة ١٦٨٦م بالقوة بندر عباس وقشم. ثم بدأ ضعف التجارة الهولندية في إيران، وحل محلها البريطانيون وخاصة شركة الهند الشرقية البريطانية، وقد كان لهجمات الجيش الأفغاني على إيران زمن الشاه سلطان حسين أثر في انتهاء النفوذ الهولندي زمن الصفويين حيث هاجم الأفغان أكبر المدن التجارية مثل لار وأصفهان وبندر عباس، وذلك سنة ١١١٠هـ-١١١١هـ[١].

ونود أن نضيف أن الصفويين قد حاولوا استعداء ملوك أوروبا على الدولة العثمانية، فمنذ عهد الشاه إسماعيل سنة ٩١٨هـ وبعد هزيمته في معركة جال ديران أمام السلطان العثماني سليم الأول، فقد كتب إسماعيل إلى إمبراطور ألمانيا والمجر وغيرهما حتى أولئك الذين ليس لهم مصالح في الخليج لمساعدته على الدولة العثمانية.

(١) محمد فتحي يوسف الريس: إيران وعلاقتها الخارجية في العصر الصفوي ٩٠٦-١١٤٨هـ/ ١٥٠٠-١٧٣٦م، ص١٣٣-٢٢٤ - دار الثقافة للطباعة والنشر- القاهرة، ١٩٨٩م.